ملحمة الحرب والسلام

دراسة تحليلية لفكرة الحرب وعواملها والسلام وأسسه

للأستاذ فؤاد عوض واصف

يكاد يكون الشعار الغالب فى حياة البدائى الأخلاقية هو أن يكون الإنسان سعيد الحظ فى الحرب يقتل من استطاع من الأعداء. وأنجح الكشوف هو ذلك الذى يهيىء للقبائل البدائية اقتناص أكبر عدد من الأجانب والعودة بجماجمهم، يجمعونها فى حرز حرز لأنها الثروة التى بها يتفاضلون، وهى ضمان الشجاعة والشرف التى بها يتقدم البدائى إلى عروسه فى فخر وخيلاء[1] ...

فإذا انتقلنا إلى شعوب أكثر حضارة وجدنا أن الوحدة الاجتماعية تكبر وتتميز؛ وكلما قويت الوحدة الإجتماعية ازداد الشعب استنكاراً لجريمة القتل؛ إلا أن النظرة إلى الأجنبى تظل محتفظة بآثارها الموروثة عن القبيلة. فقوانين الملك اين iine تصور لنا كيف كانت حياة الأجنبى رخيصة فى بلاد اليونان فى العصور الأولى، فلم يكن له أى حق قانونى. وكذلك كان الحال فى الشعوب الرومانية القديمة؛ فالكلمة اللاتينية Hostis ومعناها عدو كانت تعنى الأجنبى أيضاً. فالأجنبى والعدو يدل عليهما بكلمة واحدة. والذى يدلنا على مدى نظرة هذه الشعوب — ومن شابهها فى درجة الحضارة — إلى الأجنبى، تلك السهولة التى كانوا يقابلون بها حروبهم مع الأجانب. وفى التاريخ المصرى القديم لا نشاهد أية صيحة على الحروب وأهوالها، وكأنما الحرب ضرورة مادام هنالك أجنبى. وكذلك الحال عند العبرانيين القدماء إذ كانوا يتصورون أن الحياة حق مقصور عليهم وعلى نسلهم. وعند العرب فى الجاهلية كانت القبائل تتحارب لأتفه الأسباب، ومن ذلك ما يروى عن أيامهم، فيوم النباج وتيتل مثلاً كان من الوقائع التى أثارها حب الغزو فحسب[2].

وكل هذا يدلنا على أنه إذا كان نطاق القتل داخل البلاد قد ضاق كثيراً عنه فى الشعوب البدائية، فقد ظل الأجنبى منظوراً إليه بنظرة لا تختلف عن نظرة الشعوب البدائية.

* * *

ولما دخلت المسيحية فى أوربا أشاعت احترام الحياة الإنسانية بدرجة لم تعرف فى العصور السابقة. وكان المسيحيون فى عصورهم الأولى يرون أن القتل فى جميع صوره خطيئة كبرى. وفى هذا يقول ترتيليو[3] Tertulion : هل من الممكن أن يكون لنا حق امتشاق الحسام والسيد المسيح نفسه قد صرح لتلاميذه أن « ... كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون[4] » .

ولئن كان السيد المسيح قد أمر بطرس بأن يرد سيفه إلى غمده عندما أراد بطرس أن يقاتل أعداء المسيح، فإنما كان يعنى المسيح بهذا أن امتشاق الحسام محرم على كل جندى فى المستقبل.

وفى سنة ٣١٤ م صدر أمر بأن يحاكم كل جندى يترك سلاحه من أجل الدين، وذلك لأن البلاد كانت مهددة بغارات الأعداء. وهكذا نرى أن فكرة الحرب بدأت تعود، وأن آباء القرن الرابع والخامس الميلادى قد أخذوا يبررون امتشاق الحسام؛ حتى إذا جاء القديس أوغسطين ذهب إلى أبعد من هذا حين أراد تفسير العهد الجديد تفسيراً لا يتعارض مع فكرة الحرب، وعنده أن السيد المسيح عندما أمر بطرس بأن يرد سيفه إلى غمده لم يكن يعنى كل جندى وإنما كان يعنى بطرس بالذات لأن امتشاقه الحسام لم يكن قانونياً. وينتهى أوغسطين من هذا بقوله : « إذا كان السلام هو الخير الأسمى وكانت مدينة الله قد أقيمت من سلام أزلى فإن الحرب فى بعض الأحايين ضرورة لهذا العالم المتلىء بالخطيئة[5] » .

نجد فى كلام القديس أوغسطين تحولا جديداً فى فكرة

(١) L'origine et le developpement des Idées Morales Westermarck Tomé 1 P. 340.

(١) كتاب العرب قبل الاسلام : جورجى زيدان ص ٢٢٧

(٢) L'origine - des idées Morales : Westermarck I p. 354

(٣) انجيل متى إصحاح ٢٦ آية ٥٢

(٤) L'origine des Morales : Westermarck I p 356

الحرب عمن أتباعه على تدعيمه قائلين إنه ليس ثمة تعارض بين أن يكون الإنسان مسيحياً وجندياً فى الوقت نفسه . وانتهى الأمر بأن يتناول الفارس سيفه من القسيس الذى يباركه ويقول له تلك العبارة باللاتينية :

« Serve Christi, Sismiis, In Nomene iPatris Fiii Ch Spiritus Sancti Amen » أعنى : فى خدمة سيدك المسيح تناول حسامك أيها الجندى باسم الأب والابن والروح القدس آمين . وهكذا أصبح الجندى يمتشق الحسام باسم الله ، والحرب أصبحت قضاء من الله ، والنصر هبة من هباته .

وفى العصور الوسطى أيضاً كانت الحرب قضاء من الله . فاللورد بيكون يرى أن الحرب هى الوسيلة المثلى التى يتجلى بها الحق واضحاً ، إذ يحتكم الله عز جلاله بين الأمراء المتنازعين . ويقول لاهوتى فى هذا الصدد ، إن الحرب مرآة تقرب إلينا صورة الله « فليس كرائحة البارود عطر يستطيع من يتنسمه أن يتعرف الحق السماوى فى صورته العليا ... »

ولكن النزعة السلمية لم تنعدم الأنصار فى أوربا فى تلك الآونة ؛ ففى القرن الرابع عشر ظهرت جماعة اللولارد Les Lollards وقالوا إن الحرب فى جميع صورها تتعارض مع تعاليم الإنجيل . وإن سلاماً غير عادل أكرم من حرب عادلة . ويقول « ارازم » إن الحرب ليست وحشية فحسب بل هى أكثر من ذلك ، لأن الإنسان القاتل أكثر وحشية من الوحش نفسه ، لأن الطبيعة إذا كانت قد هيأت الوحوش للحرب فإنها على العكس لم تهيىء الإنسان للحرب ؛ ومن ذهب إلى الحرب فليعلن أنه يمتشق الحسام ضد الطبيعة وضد الله وضد الإنسان ...

وجماعة الكويكرز ترى أن الحرب أيا كانت تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس ؛ وإذا كانت نهاية الإنسان هى الخلود فإن مستقبل فرد واحد فى الآخرة يفوق كل خير وفق لأمة بأسرها ...

ومن هنا نرى أن الناس قد انقسموا أمام فكرة الحرب ، فى تلك الآونة ، إلى فريقين : فريق يرى أن الحرب مرآة فيها يتجلى الحق السماوى ، وفريق يرى أن الحرب تتعارض مع تعاليم المسيحية ، وأن سلاماً غير عادل أفضل من حرب عادلة .

* * *

وأما الحال عند العرب فقد عرفنا أن الإسلام قد أبطل الكثير من عاداتهم القديمة وجعل القتل جريمة كبرى . وقد نص القرآن الكريم على هذا بقوله : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

ولكن القرآن قد حث من جهة أخرى على مقاتلة الكفرة فى ظروف معينة إذ يحق للعرب أن يعتبروا « الجنة فى ظلال السيوف[1] » . وفى هذا يقول الله لنبيه : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وهكذا يكون الإسلام قد أجاز الحرب فى ظروف خاصة .

* * *

وفى القرن السابع عشر ظهرت فى أوربا طائفة الموسوعيين Encyclopedists وعلى رأسهم ديدرو الذى استطاع أن يجمع إليه عدداً من أشهر فلاسفة أوربا من أمثال فولتير وروسو . والفلاسفة — فى الانسيكلوبديا — وإن تباينت آراؤهم قد اتفقوا فى معاداتهم للمبادىء الكاثوليكية[2] ولم تكن إذ ذاك سلمية . ولقد قام فلاسفة الانسيكلوبدية بدعوة سلمية معتدلة تختلف عن دعوة ارازم ، فولتير وإن يكن يعترف بأن الحرب واجبة فى بعض الأوقات إلا أنه ينعى عليها شرورها ويقول إن الذى يجر الناس إليها طمع الأمراء وجشعهم .

ونحن نجد أيضاً عند فلاسفة النهضة الحديثة من أمثال كانت وبنتام وروسو نزعات معادية للحرب . ولكن ظهر رد فعل لهذه النزعات ، فى نزعة قومية زعم أنصارها أن وحدة عالمية ليست إلا حلماً فظيعاً ؛ فليس ثمة ضمان للفضيلة عندهم إلا بوجود القوميات ؛ وهكذا أخذوا ينفخون فى نفير الحرب لأنها مقياس الحق ولأنها منبع ترتوى منه الفضيلة فيشتد عودها ويتقوى ساعدها . والحرب عند نيتشة قد جلبت للانسانية من الخيرات

(١) Jbid P. 347

(٢) تاريخ المدن الحديث تأليف سنيوبوس وتعريب دار الهلال ص ٤٦

أضاف ما جلبه الحب الإنساني . وهي عنـد راسكين أم الفنون وجميع الفضائل المدنية . ولقد أصبحت الحياة عنـد هؤلاء حق يقتصه القوى من الضعيف . وإن الصراع من أجل الحياة بين الأقوياء والضعفاء سيتمخض عن الإنسان الأعلى Superman الذي يعلو على أعقاب الضعفاء[1] ويقضي على جيلهم . ان فلسفة القوميات في الواقع هي فلسفة قوة وحرب وسيطرة .

وبعد سقوط نابليون شاع في العالم الرغبة في سلام طويل . ولكنها كانت فترة قصيرة تلك التي شـاع فيهـا حب السلام استيقظت بعـــدها صيحـة القوميات وتعطشها إلى الحرب والسيطرة .

* * *

عرضنا فيما سبق استقراء عاماً لفكرة الحرب وتحولها في أحقاب التاريخ . وإن نظرة واحدة إلى ما أمامنا من العناصر لكافية بأن تخرجنا بحقيقة أشبه بأن تكون يقينية ، إن كان هنالك ثمة يقين في مجال العلم الحديث ...

لقد وجدنا أن فكرة الحرب من المعاني الخلقية التي لم تثبت على حال واحدة ، بل اختلفت وتبدلت باختلاف الشعوب والعصور ؛ فبينا نرى الحرب في بعض الأحايين خيراً أسمى بل وضماناً للفضيلة ، نراها في أحايين أخرى شراً مستطيراً ، أولى بالحيوانات الكاسرة منها بالإنسان الأخلاقي ...

هذا الاختلاف في نظرة الإنسان إلى معنى الحرب نتيجة لعوامل اجتماعية تشكل الوجدان الأخلاقي فتارة تغلب عليه فكرة الحرب فيراها الإنسان خيرا ، وتارة تغلب عليه فكرة السلام فتبدو الحرب للانسان شراً ليس بعده شر .

فكرة الحرب إذاً من المعاني النسبية ، تخضع لعوامل اجتماعية معينة تتولد منها وتزول بزوالها .

والتاريخ يدلنا على ألوان أخرى من القتال غير الحروب بصورتها الحالية وذلك مثل الحروب الخاصة Les gucrres privs والثأر للدم والمبارزة بين الأفراد وغيرها . وقد كانت هذه الأنواع من القتال تتولد تحت ظروف اجتماعية معينة ، وكانت تبدو للضمير الجمعي في صورة بطولة وشرف . حتى إذا زالت العوامل الإجتماعية المولدة زالت معها أنواع القتال المختلفة ، وأصبحت نظرة الناس إليها غير تلك النظرة السابقة ...

لذلك ليس بصحيح ما يزعمه بعض العلماء من أن الحرب ضرورة في فطرة الانسان ، فكما أن خلايا الجسم تتحارب فتتولد الحياة الفردية ، كذلك يتحارب الناس فتتولد الحياة الاجتماعية . إنما الحرب كما أثبت الاستقراء التاريخي ، نتيجة لعوامل اجتماعية خاصة قابلة للأفول ، وعندئذ تصبح فكرة الحرب من المعاني المجهولة ، كما أن الكثير من أنواع القتال كالمبارزة بين الأفراد أصبحنا نجهله كل الجهل .

وعند العلامة وسترمارك أن أنصار السلام يزدادون يوماً بعد يوم ، وهكذا عندما ننحسر موجة القوميات — وهي العوامل الإجتماعية المولدة للحروب في عصورنا — ولا يعود الناس ينظرون إلى الحرب والسلام بالمنظار القومي ، فإن كل الدلائل تدل على أن الصيحة ضد الاستبداد المنبعثة من القوميات ستخفت ، كما خفت غيرها من صيحات الحروب الخاصة والثأر للدم ...

وإن لنا الدليل كل الدليل في أن العالم يتجه نحو وحدة عالمية ، تتلاشى عندها الدوافع القومية وتختفي معالمها ، وذلك في روح المذاهب السياسية للدول المتسيرة في هـــذه الحرب . فالديموقراطية تنعت بأنها مبدأ يعلو على القومية Super-national وكذلك الاشتراكية الحديثة في روسيا (البلشفية) ليست مبدأ قومياً ، وإنما هي ترمي في النهاية إلى وحدة عالمية شأنها في ذلك شأن الديموقراطية . في حين أننا نرى الفاشيستية والاشتراكية القومية (النازية) تنظران إلى وحدة عالمية كحلم فظيع ، نرى أن الديموقراطية والبلشفية تتجهان في جوهرهما إلى وحدة عالمية يسودها الوئام والسلام ...

إن ملحمة الحرب ملحمة طويلة وحافلة ، ولكن لهـــا — ككل قصة في الحياة — نهاية وخاتمة ؟

فؤاد عوضه واصف

ليسانسيه في الفلسفة

(١) On nkir el medeh Knouledc W. Rore p. 36